المحور الثالث: تاريخ الأنثروبولوجيا

المحاضرة 04: الأنثروبولوجيا في العصور الوسطى

تمهيد:

تمتد العصور الوسطى من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر ميلادي، وقد اصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى كونها شكلت حقبة مظلمة ومتدهورة وقعت بين عهدين هما: نهاية ازدهار الفلسفات الأوروبية القديمة (اليونانية والرومانية) وبداية عصر النهضة الأوروبية (عصر التنوير) والانطلاق إلى مجالات جديدة من استكشاف العوالم الأخرى، وإحياء التراث الفكري القديم، وإبداعات في الفنون والآداب المختلفة، في الوقت الذي كانت فيه الحضارة العربية الإسلامية تزدهر، وتتّسع لتشمل مجالات العلوم المختلفة .

1) الأنثروبولوجيا في أوروبا في العصور الوسطى:

يذكر المؤرخون أنّه في هذه الفترة تدهور التفكير العقلاني، وأدينت أية أفكار تخالف التعاليم المسيحية أو ما تقدمه الكنيسة من تفسيرات للكون والحياة الإنسانية ولذلك سميت بالعصور المظلمة، على الرغم من وجود مراكز مهمة اعتبرت منطلقات للمعرفة في تلك العصور، كأبلطة الملوك مثلاً التي كانت تضم فئات من المثقفين ورجال الإدارة والسياسة والشعراء، حيث عرف آنذاك توسع كبير في دراسة القانون والفلسفة واللاهوت مما كان له آثار واضحة في الحياة الأوروبية العامة (السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية) ومهد بالتالي للنهضة التي شهدتها أوروبا بعد هذه العصور .

وقد ظهرت في هذه المرحلة محاولات عدة للكتابة عن بعض الشعوب، إلاّ أنّها اتسمت في الغالب بالوصف التخيلي وكانت بعيدة عن المشاهدة المباشرة على أرض الواقع. وكمثال على ذلك ما قام به **الأسقف إسيدور** الذي أعد في القرن السابع الميلادي موسوعة عن المعرفة، وأشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة وعاداتهم، ولكن بطريقة وصفية عفوية تتّسم بالسطحية والتحيز، ومما ذكره أن قرب الشعوب من أوروبا أو بعدها عنها يحدد درجة تقدمها، فكلّما كانت المسافة بعيدة كان الانحطاط والتدهور الحضاري مؤكدا لتلك الشعوب. ووصف الناس الذين يعيشون في أماكن نائية بأنّهم من سلالات غريبة الخَلق.

وقد ظلّت تلك المعلومات سائدة وشائعة حتى القرن الثالث عشر، حيث ظهرت موسوعة أخرى

أعدها الفرنسي **بـاتولو ماكوس** حظيت بشعبية كبيرة على الرغم من أنّها لم تختلف كثيرا عن سابقتها في الاعتماد على الخيال.

2) الأنثروبولوجيا في العصور الوسطى عند العرب (الحضارة العربية الإسلامية):

وتمتد من منتصف القرن السابع الميلادي حتى نهاية القرن الرابع عشر تقريباً، حيث بدأ الإسلام في الانتشار، وبدأت معه بوادر الحضارة العربية الإسلامية آنذاك بالتكوين والازدهار والتي كانت ذات تأثيرات خاصة في الحياة السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية .

وقد اقتضت الأوضاع الجديدة التي أحدثتها الفتوحات العربية الإسلامية الاهتمام بدراسة أحوال الناس في البلاد المفتوحة وسبل إدارتها، حيث أصبح ذلك من ضرورات التنظيم والحكم، ولذلك برز العرب في وضع المعاجم الجغرافية، مثل: **معجم البلدان** لـ: **يـاقوت الحموي**. وكذلك إعداد الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري (14م) مثل: **مسالك الأمصار** لـ: **ابن فضل الله العمري**، و **نهاية الأرب في فنون العرب** لـ: **النويري**

وإلى جانب اهتمام هذه المؤلفات بشؤون العمران، فقد تميزت بالاعتماد على المشاهدة والخبرة الشخصية، وهذا ما جعلها مادة خصبة من ناحية المنهج الأنثروبولوجي في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية، وكمثال على ذلك ما جاء به **البيروني** الذي عاش ما بين **(973 و 1048)** وألف كتابا عن الهند بعنوان **تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، حيث وصف فيه المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية واجتماعية وأنماط ثقافية. واهتم أيضاً بمقارنة تلك النظم والسلوكيات الثقافية، بمثيلاتها عند اليونان والعرب والفرس، كما أبرز **البيروني** في هذا الكتاب، حقيقة أن له دور رئيسي في توجيه سلوك الأفراد والجماعات الهندية، وصياغة القيم والمعتقدات

كما كانت لرحلات **ابن بطوطة (1304-1377)** وكتاباته خصائص ذات طابع أنثروبولوجي، برزت في اهتمامه بالناس ووصف حياتهم اليومية، وطابع شخصياتهم وأنماط سلوكاتهم وقيمهم وتقاليدهم. ومثال على ذلك ما كتبه في استحسان أفعال أهل السودان " **فمن أفعالهم قلّة الظلم، فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه. ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا**

المقيم من سارق ولا غاضب. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت في بلادهم من البيضان (البيض أوالأجانب) ولو كان القناطير المقنطرة. وإنّما يتركونه بيد ثقة من البيضان، حتى يأخذه مستحقّه.

أما **مقدمة ابن خلدون (1332-1406)** والتي كانت مقدمة لمؤلفه الضخم الموسوم بـ: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، فقد نالت شهرة كبيرة وواسعة لأنها كانت شاملة لكافة ميادين المعرفة، كما تحدثت عن أحوال الناس، واختلافات البيئة وأثرها على الإنسان، وتناولت نشوء الدولة وتطور الشعوب والأمم، وأسباب انهيارها ، حيث تعتبر هذه المقدمة عملاً أصيلاً في تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال أفريقيا، سيما العادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية، إلى جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كل ما رآه من أنظمة اجتماعية مختلفة. وقد شكّلت موضوعاتها فيما بعد اهتماماً رئيسياً في الدراسات الأنثروبولوجية.

ومن أهم ما تناوله **ابن خلدون** تلك العلاقة القائمة بين البيئة الجغرافية والظواهر الاجتماعية. فقد أرجع اختلاف البشر في ألوانهم وأمزجتهم النفسية وصفاتهم الجسمية والخلقَية إلى البيئة الجغرافية التي اعتبرها أيضاً عاملاً هاماً في تحديد المستوى الحضاري للمجتمعات الإنسانية. كما تطرق إلى مسألة قيام الدول وتطورها وأحوالها، وبلور نظرية (دورة العمران) بين البداوة والحضارة على أساس المماثلة بين حياة الجماعة البشرية وحياة الكائن الحي. فعمر الدول عند ابن خلدون كعمر الكائن البشري، تبدأ بالولادة وتنمو إلى الشباب والنضج والكمال، ثم تكبر وتهرم وتتلاشى إلى الزوال

لقد أرسى ابن خلدون الأسس المنهجية لدراسة المجتمعات البشرية، ودورة الحضارات التي تمر بها، ولذلك يرى بعض الكتّاب والمؤرخين سيما علماء الأنثروبولوجيا البريطانيين في مقدمة ابن خلدون بعضاً من موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومناهجها، وفي أمريكا أشار **جون هونجيمان** في كتابه **تاريخ الفكر الأنثروبولوجي** إلى أن ابن خلدون تناول بعض الأفكار ذات الصلة بنظرية **مارفين هاريس** عن **المادية الثقافية** ونجد أن **هاريس** ذاته، يذكر أن ابن خلدون ومن قبله **الإدريسي**، قد قدما أفكاراً وموادا ساعدت في بلورة **نظرية الحتمية الجغرافية** التي سادت إبّان القرن الثامن عشر

خلاصة:

استنادا إلى ما تقدم يمكن القول بأن الفلاسفة والمفكّرين المسلمين أسـهموا بفاعلية خلال العصور الوسطى في معالجة كثير من الظواهر الاجتماعيـة التي يمكن أن تدخل في الاهتمامات الأنثروبولوجية، خاصة فيما يتعلق بالتنوع الثقافي والحضاري بين الشعوب، ورغم ذلك فإن الأنثروبولوجيا التي تبلورت في أواخر القرن التاسع عشر كعلم جديد معترف به، لم تكن ذات صـلة تذكر بهذه الدراسات، ولا بغيرها من الدراسات (اليونانية والرومانية) القديمة.

المراجع المعتمدة:

1) فهيم حسين: **فصول في تاريخ علم الإنسان: قصة الأنثروبولوجيا**، مطابع الرسالة، الكويت ، 1986

2) أحمد ماجد : **الأنثروبولوجيا: التعريف، الهدف، الاتجاهات النظرية** ، تمت زيارة الموقع بتاريخ : 2022/10/10، على الرابط : https://maarefhekmiya.org

3) خالد بلعربي: **الفكر الأنثروبولوجي في كتابات الرحالة المسلمين** ، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد 03، العدد 04، 2017/03/25، الصفحات: 180-191.